كلية الامام الأوزاعي للدراسات الاسلامية

مقرر مادة

الفكر الاسلامي الحديث

(السنة الرابعة)

تأليف
الدكتور علي لاوغا

١٤٠٨-١٤٠٩هـ
١٩٨٧-١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

الحمد لله الذى خلق السموات و الأرض و جعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون والصلاة و السلام على محمد رسول الله الذى أرسله الله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله " ولو كره المشركون " فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، فصلوات الله و سلامه عليه و على آله و صحبـــه أجمعين .

" فأما بعد : فمنذ أفاض الله سبحانه على البشرية بنعمة الاسلام والصراع بيـن الحق و الباطل على قدم وساق ، وقد كان للمسلمين عبر هذه الحقبة من التاريخ الطويـل صولات وجولات كانت في معظمها تعبيرا صحيحا و صادقا عن علاقتهم بالاسلام . لكنها سنة الله تعالى في الخلق ، هذه السنة التي لم تنتبه لها الأجيال المسلمة جميعها في وعي وبصيرة و مسؤولية ، فحقت عليها كلمة الله ، بعد تحذيره سبحانه أمة الاسلام ، بأنه قد خلت من قبلها أمم كانت لها عاقبة سيئة ، وبأنه سبحانه يداول الأيام بين الناس على ضوء علاقتهم بسنن الله في الخلق ، هذه السنن التي منها في علم الله وعده سبحانـه لعباده المؤمنين ، أن يمكنهم من المواد الغنية ومن صحة و كفاءة استثمارها وليحققـوا بهذه النعمة ، وذلك الوعد بديلا عن أنواع الخوف و القلق في مجتمعات غير المؤمنيـن ، بديلا يأمنون به على أنفسهم و ذويهم من غوائل الخوف و القلق و الصراع ، ومصداقا لهذا الوعد الالهي في سورة النور الآية ٥٥ " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهـــم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" .

انه في ضوء هذه السنة أيضا تعرف الأجيال المؤمنة بوعي و بصيرة أن الرزق الموفور بضوابطه ،وأن الأمن المستقر على اليقين في الله تعالى هما سمة " المجتمع المسلم ".

الأيام مداولات بين الناس ،والمغنم في هذه الدنيا الى جانب من هم أعرف بسنة الله في الخلق ،وأما الفوز بالدارين معا ، الدنيا والآخرة فهو الى جانب من عرفوا وتعاملوا مع سنن الله في الخلق في هذا الكون الذي سخر الله كل ما فيه للانسان ، وهم بتعاملهم هذا يبتغون وجه الله ،فهم يتعاملون مع الكون بنواميسه و قوانينه حيث لا نتيجة الا بسبب ولا مكتشف الا وفق المنهجية الصحيحة والسليمة للتعامل مع المادة ،و يتميزون عن غيرهم أنهم يعيشون حياتهم وفق شرع الله سبحانه و تعالى ، خالق الكون وما فيه ،والعالم بكل خفاياه ، المغنم الصحيح و الدائم هو هذا الفوز الذى لا تعقبه مأساة ولا يشوبه قلق ولا خوف ولا اضطراب ،فالخوف يكون على الواقع والمصير ،فعندما يكون الواقع سليما و التعامل معه بعقلية قرآنية تبحث في نواميس الخلق كله وتتمكن من أن تكون دائما في المقدمة ،حيث تجد البشرية فيها الخلاص في الدنيا و كذلك الخلاص في الآخرة ،هذه العقلية التي افتقدها المسلمون يوم غزتهم الفلسفات الأخرى في فترة ما سمي بالعصر الذهبي للترجمة والنقل ، " عصر نكبة الفكر الاسلامي بالفعل " غياب هذه العقلية هو السبب في كل ما آل اليه حال المسلمين في الماضي و الحاضر.

غريبة هي العقلية التي تعيش في رؤوس المسلمين اليوم ،و بعد العصر العباسي ،فالجيل القرآني الأول وهو الذى اليه تُعزى كل المكتشفات العلمية ، في ذلك العصر الاسلامي الزاهر ،ذلك الجيل هو الذى كانت تشد اليه الرحال من كل صوب ،من شرق الأرض ومغربها ، وفي جامعاته لم يتتلمذ مشاهير علماء أوروبا فحسب بل أحد البابوات أيضا وهو " سيلفستر الثاني ". وكلفتة انتباه فقط الى الاسلوب القرآني الذي يستحي الباحث أن يطلق

عليه اسم الأسلوب العلمي ، فهو لا يحب الا المصطلح القرآني ، ، ففي سورة "ق" ردّ الله سبحانه وتعالى على الكافرين الذين أنكروا امكانية البعث مرة أخرى بأن شد هم الى نواميس الكون التي تصغر أمامها عملية البعث يوم القيامة ، لم يقل لهم الباري عزّ وجلّ ، بأن ذلك حاصل و هكذا . . . أو بقدرة الله فحسب . . . و الله هو القادر على كل شيء بل خاطبهم بمنهجية أفادت سامعها يومها و دفعته الى بناء الحقيقة الايمانية عبر الكون ونواميسه ، وليس بعلاقة " أفلاطونية " أو قل رهبانية ، أو قل هندوسية **بأوقل** صوفية ، لا ليس كذلك ، بل بالتعرف على عجائب الخلق يتعرف على عظمة الله **عزّ** وجلّ ، و بالتأمل الدائم في هذه النواميس الكونية والقوانين التي تحكمها نكون أول مكتشف لقوافينها و مستفيد منها في اسعاد البشرية في هذا الكون :

يقول تعالى : " ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا و كنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد " هذا هو سؤال المشركين ، وكان الجواب في شد انتباههم الى الخلق ، أي الكون وليس بأسلوب آخر " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها و ألقينا فيها رواسي و انبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب . ونزّلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . و **النخل** باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج " سورة ق آية : ١ - ١١ .

هكذا كان الجواب " كذلك الخروج " .

من المحيط " الكون " كان الجواب على قدرة الله سبحانه و عظمته ، ومن هذا المحيط بالذات يبنى الايمان بالله عزّ وجلّ ، وفي هذا المحيط بالذات تتحقق ارادة الله في استخلاف الانسان كي يعمر الأرض وفي تلك الرحلة من الاعمار وفي خضم الصراع فيه يكتب الله سبحانه مصير البشر ، وحكمه : " من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها نُوَفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون " سورة هود : ١٥ .

لكن هؤلاء الذين اقتصروا فقط في حياتهم على حطام الدنيا دون الحساب الا أن الحياة فيها بغير شرع الله معناه المآل الى الخسران الكبير " أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وأحيط ما صنعوا و باطل ما كانوا يعملون " سورة هود : ١٦ .

أن يلوذ الى ملجأ يحميه ، وهو لا يدرى أن لا حماية ولا ملجأ له الا الله سبحانه ، لكن فكرة التوحيد هذه تشاب دائما بران ، أو بغبار يحجب الأنظار ، وفي كل الأحوال يعتبر عابد و الأصنام أن أصنامهم تقربهم الى الله زلفى .

وفكرة الرجال العظام عرفها الفكر الأوروبي منذ أقدم العصور ، و عرفتها الجاهلية في الجزيرة العربية ، و لطالما الرجل العظيم هو الذى تنسب اليه فعلا القبائل العظيمة أو الأمم العظيمة . . . وفق ذلك التصور .

وكان مما عمت به البلوى أن نهج المسلمون هذا المنهج وراحوا يبحثون في سيرة العظماء والمصلحين ، واذا كان لمن سبقهم بعض العذر ، فليس لهم هم أي عذر ، أي عظيم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم و عظمته هي من الله عز وجل ؟ وأي فكر بعد القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه ؟ وأي منهج حياة بعد القرآن و السنة ؟ .
والغني بعد ذلك من المسلمين من استطاع أن يعيش و يفكر و يتمثل شرع الله سبحانه وكلهم بعد ذلك يجب أن يكونوا : إما عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، وإما متعلم ، ولا يجوز أن يتبوأ أحدهم المرتبة الثالثة ألا وهي الجهل .

كان على المسلمين أن يعملوا عقولهم في اكتشاف خبايا الكون و خزائنه ، و يقدموا للبشرية خلاصها في هذه الحياة كي تعبد الله سبحانه وهي تحس احساسا يقينيا أن من كان مع الله فهو السيد و الحر و الغني و القوي ، وغير ذلك الضعف و الجهل و الفساد . . .

واذا بالأدوار تتبدل ، فيقدم غير المسلمين للبشرية ما يفيدها وما يضرها في آن معا من خلال اكتشافهم لنواميس الكون ، ويبقي المسلمون عالة على هامش الحياة ، وعادت الصنمية الى حياتهم من جديد ، و العالم يسمع لقولهم إن خلاصه بالاسلام ، لكنه في الواقع لا يسمع إلا أصواتا تخرج من أفواه تعيش في ظلمات ما بعدها ظلمات ، والانسان بفطرته لا يحب الا النور . . . وكان دور المسلمين بالأساس هو تقديم هذا النور للبشرية جمعاء ، و بدلا من أن يتباهى المسلمون بأداء دورهم الأساسي وهم يرجون بذلك ثواب الله و عفوه ، فاذا بهم

وأما الفريق الثاني " ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " سورة هود : ٢٣.

ويقارن الباري عزّ وجلّ بين الفريقين " مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون " سورة هود : ٢٤

وحكمه تعالى " وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " سورة هود : ١١٧.

الوجود كله محكوم بمسلمة لا يجوز تخطيها بأي شكل من الأشكال ألا وهي : الله سبحانه وتعالى وما دونه خلق له .

هذه هي الحقيقة التي على أساسها يجب أن نفكر ، و بمقدار مانفهمها و نتعامل مع موجباتها بمقدارما نكون مفكرين ، والفكر الصحيح هو تبع لها ، وضائع إن نهج غير هذا المنهج .

واذا ما عادت البشرية دائما الى التمحور حول المظلم من تاريخها فهي لا تخرج بشكل أو بآخر عن منهجية الذين كفروا برسالة نوح عليه السلام ، أولئك الذين استحقوا غضب الله سبحانه و تعالى ، ودعا عليهم النبي نوح عليه السلام تلك الدعوة الماحقة لهم بقدرة الله عزّ وجلّ " وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا " ، سورة نوح : ٢٦ .

لقد رفعوا في وجه دعوته الآلهة المتعارف عليها يومها من دون الله ، تنزّه الله ، " و قالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وُدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ و يَعُوقَ ونَسْرا " سورة نوح : ٢٣ .

وهذه الأسماء كانت فيما مضى إما لأبناء آدم عليه السلام أو لرجال صالحين ، لما ماتوا حزن عليهم قومهم فزيّن لهم الشيطان صنع تماثيل لهم من رصاص أو نحاس . وتحولت بعد ذلك الى اصنام تُعبد من دون الله ، تلك هي طبيعة الانسان في كل زمان ، يجب أن يكون قريبا من مصدر القوة ، انه ضعيف و ضعفه هذا يدفعه دائما الى

يرون العظمة والاصلاح في رجال ، نسأل الله ألا يُصبحوا "وُدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً" خاصة وقد أَطَلَّتْ علينا حالات ليست جديدة بمبدئها مع أنها محدثة في مظهرها تُنذر بتقسيم المجتمع الاسلامي الى مجتمعات روادها و عظماؤها و بناتها : ودا ، وسواعا و يغوث . . . فبدلا من محاكاة القرآن و السنة ، بدلا من التأسي بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي ترجمة واقعية للاسلام ، بدلا من ذلك كله نسينا النور الساطع وبتنا نرى بصيصا هنا و لمعانا هناك ، من ينكر الاستبداد فهو مصلح ومن ينكر الخرافات فهو مصلح ومن يرى وجوب التغريب في الفكر و المنهج فهو مصلح ، وجريا على تقليد الغرب يجب أن تكتب فيهم الأبحاث و المجلدات و يوقف بعض عمر الشباب من المسلمين وباكورة انتاجهم على دراسة هؤلاء و حركاتهم و سكناتهم ، ثم اتهامهم من هذا ، ورد عنهم من ذاك . . . و ينسى الأصل وتضيع المهمة .

الحقيقة ، أن الصالح منهم هو من خلص نفسه و قام بواجبه وذلك بتحقيق منهج الله سبحانه في اعمار الكون وفق شرعه و اقناع البشرية ، عملا وليس قولا ، بأن لا نجاة الا بالايمان بالله سبحانه ، والمؤمنون هم وسيلة النجاة في هذا الكون والمرشد الى النجاة في الآخرة .

ولما قررت أن أكتب هذه المذكرة وضعت كل هذا أمام عيني ، راجيا المولى سبحانه وتعالى التوفيق و السداد ، وحاولت أن أجعل من تجربة هؤلاء مختبرا يدرس فيه الطلاب تجارب سابقة على عصرهم علّهم يتمكنون من تجنب أخطاء و محاكاة صواب . . . ثم بعد ذلك كله يتحصنون من الوقوع في شراك الخطأ ، ولنا في السياق القرآني في تربية الأمة المسلمة عبر القصص للأمم البائدة بالايجابي منها و السلبي ، ما يساعدنا على ذلك .

ولئن جاءت الدراسة غير كافية فبعض السبب هو الوقت القصير الذي أتيح لي كي أعدها هذا العام ، والبعض الآخر يعود لبشريتي و عجزي ، وكان الانسان ضعيفا .

والله ولي التوفيق .

علي لاغا

الحركة الوهابيـــة. (١)

قبل أن نبدأ بعرض شيخ الحركة و مبادئه أو حتى النتائج التي اسفرت عنها هـذه الحركة أرى من المفيد أن نقرأ و نتعرف على ملامحهـا الفكرية و أثرها الذى اقتصر علـــى الدعوى لترك عبادة ما دون الله من حجر و شجر و بشر ، وكان اثرها ذاك متناسبا مـــع ثقافة شيخها محمد بن عبد الوهاب الذى ما خرج في فكره واصلاحه عن بيئته وفـــــق الدراسة التي تلقاها عن والده وعن بعض المشايخ والمرتكزة بالأساس على المذهـــب الحنبلي و على أفكار وآراء الشيخ ابن تيمية و تلميذه ابن القيم .

ففي الوقت الذى كانت تزهق فيه الأرواح و تشن فيه الغارات و تباح فيه الحرمـــات وتحرق الاشجار و تهدم البيوت ـ كل ذلك لاعادة الناس الى صفاء العقيدة التي هي عقيدتهم أصلا ، والخرافات كتلك التي جنحت بهم الى تقديس الحجر و الشجر انما هي من نتاج أو من مسببات الحكم يومها الذى لم يعط لمناطق الحجاز وغيرها من البوادى و الصحـــارى أية اهمية كما أنه لم يكن للعلم عنده يومها الأهمية التي تذكر .

في ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حركات اصلاحية قلبت الدنيا من العالم القديـــم الى العالم الحديث و الذى باهمال المسلمين له يومها ومازالوا باتواطعمة سائغة و لعبـــة حقيرة ذليلة في يد العالم الصناعي شرق أم غرب لا فرق .

فالنجاح الذى ادركته الدعوة الوهابية (٢) لم يكن له الأثر المطلوب بين المسلميـن في هذا القرن ، لأن الاصلاح الذى نادت به كان اصلاحا ضئيلا جدا وكان الغرض منـــه

---

١) الدراسة عن الحركة الوهابية مستقاة من بحث عنها للدكتور محمد حسين شندب ، نال عليه شهادة الكفاءة من كلية التربية في الجامعة اللبنانية ولم ينشر بعد ، وهو بحث قيم.

٢) هذا الرأى للاستاذ عبد المتعال الصعيدى في كتابه المجددون في الاسلام ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٢ ص ٤٣٧ .

دينيا محضا ، مع أن الاصلاح المطلوب للمسلمين لم يكن اصلاحا دينيا فقط بل كان اصلاحا دينيا و سياسيا و اجتماعيا و علميا يصل بهالمسلمون الى ما وصلت اليه اوربا في هذا القرن .

نعم كان المطلوب ان يصل المسلمون الى ما وصلت اليه اوروبا في نهضتها ولم يكن هدم القباب و منع التوسل بالأنبياء والأولياء وحده كاف لهذه النهضة على أن طابع الوهابية كان متأثرا بطابع دعوة ابن تيمية و قد كانت دعوة ابن تيمية تنفر أو تهمل الفلسفة وعلومها وكان هذا نقصا كبيرا فيها وهو في الدعوة الوهابية أشد ضررا لأن الفلسفة في عهد ابن تيمية كانت فلسفة قديمة ليست لها قيمة كبيرة في الحياة العملية ، أما الفلسفة في عهد الدعوة الوهابية فقد صارت فلسفة علمية ظاهرة النفع في هذه الحياة فلا يصح لدعوة اصلاحية أن تنكر فائدتها أو تتجاهلها وقد تعذر الدعوة الوهابية في هذا بنشأتها في أمة بدوية و أنه ليكفي هذه الأمة البدوية أن تقوم في هذا القرن بذلك القدر في الاصلاح ، وأنه ليقبل عذرها في الاكتفاء به اذا نظرنا لموقف الأمم الاسلامية المتحضرة منه ، فانها لم تقم بمناصرته و طلب المزيد من الاصلاح ، بل وقفت منه موقفا غير كريم و قاومته بكل ما فيها من قوة جمود على القديم ، حتى وصل الأمر في هذا الى قيام حروب زادت في تفريق كلمة المسلمين .

ومع هذا يقع على الدعوة الوهابية أيضا شيء من التبعة في الحروب التي قامت بسببها ، لأنها لم تكن دعوة سلمية محضة يقصد منها دعوة مخالفيها اليها بالموعظة الحسنة وادخال الناس فيها بالتي هي أحسن ، بل أعلنت في سبيل تأييدها جهادا دينيا لحمل مخالفيها على الدخول فيها فمن آمن بها سلم ومن خالف وعاند فقد حل دمه و ماله . وقد قام الوهابيون ببعض المخالفات في البلدان التي دخلوها ابتداء من اليمن و الحجاز وأطراف الشام و العراق ، فكان كل بلد يدخلونه منها حربا حلالا لهم ، اذا أمكنهم البقاء فيه ألحقوه بامارتهم و اذا لم يمكنهم البقاء فيه اكتفوا بما يصل الى أيديهم من الغنائم .

ولا شك بأن الدعوة الوهابية تخرج بهذا عن سماحة الاسلام ، لأن الدعوة الاسلامية سلمية محضة ولا تلجأ الى القتال الا عند الضرورة والا اذا كان في سبيل الدفاع عن نفسها فلا يباح لها ابتداء اعدائها بالقتال لأنه لا اجبار لها على الدخول في الاسلام. وهذا معلوم منها الآن بالضرورة ، ولكن الوهابيين كانوا كغيرهم من جمهور المسلمين في ذلك الوقت ، يرون ان الاسلام لم يقم الا بالسيف ، فلتقم دعوته بالسيف ايضا .

واذا كان الاسلام قد عامل مخالفيه هذه المعاملة السمحة وهم يكفرون به كفرا صريحا فانه كان على الدعوة الوهابية أن تعامل مخالفيها بمثل ما عامل به الاسلام مخالفيه ، وهم ليسوا في الكفر مثلهم قطعا . لأنهم يؤمنون بالله و رسوله وان كانوا مع هذا يدعون الموتى ويستغيثون بهم ، ويسألونهم قضاء الحاجات و تفريج الكربات لأن هذا لو سلم أنه شرك فانه لا يبلغ شرك من لا يؤمن بالله .

وكان في حماية آل سعود للدعوة الوهابية ما يكفيها عن اعلان الجهاد على مخالفيها وكان في الوسائل السلمية ما يضمن لها أن تنتشر أكثر مما وصلت اليه بالقوة . لأن استعمالها القوة ألجأ مخالفيها الى استعمال القوة مثلها والى المغالاة في تشويهها وصرف الناس عنها . فلم يؤمن بها الا قليل جدا في بلاد العرب لأنها لم تصل اليهم على حقيقتها وانما وصلت اليهم محرفة مشوهة ، ولو أنها وصلت بوسائل سلمية لآمن كثير منهم بها ولا سيما بعد انتشار التعليم الحديث بين المسلمين لأنها أقرب الى عقول المثقفين بهذا التعليم من غيرها .

ولا يمنعهم الآن من الايمان بها الا عنجهية القائمين بالدعوة اليها وانهم لا يزالون متأثرين بشيء من أساليب الشدة التي كانت تتخذها في أول امرها .

وكذلك يؤخذ على الدعوة الوهابية مع دعوتها الى فتح باب الاجتهاد أنها وقفت جامدة على تقليد مذهب ابن حنبل ولم تأخذ مما دعا اليه ابن تيمية الا ما يتعلق بالعقائد ولم تأخذ شيئا مما ذهب اليه في الطلاق الثلاث و نحوه مع أنه قد أخذ بهذا أخيرا في بعض الحكومات التي لم تتأثر مثلها به . ولا يذكر لابن عبد الوهاب في الاجتهاد الا بعض مسائل ليست بذات شأن كجعله دية المسلم ثمانمائة ريال بدلا من مائة ناقة ، مع أن المسلمين في

حاجة الآن الى اجتهاد كبير لا يقف عند ما وقف عنده ابن تيمية بل يرفع عنهم آثار الجمود التي مرت عليهم في تلك القرون و ألجأتهم الى اتخاذ ما وضعوه من القوانين .

رأى الأستاذ الشيخ علي الطنطاوى (١) :

يقف الشيخ الطنطاوى موقفا وسطا من الحركة الوهابية فهو يشيد بها من ناحية وينتقدها من ناحية اخرى على حد ما جاء في قول الدكتور/ محمد شندب .

جاء في الصفحة الخامسة من كتاب الطنطاوى :

" سيرى القارىء حين ينظر في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، أنه لم يكن عالما كبيرا ولكنه كان معلما كبيرا . ولقد كان في عصره من هو أعلم منه وأحفظ لفروع العلم واكثر احاطة وتصنيفا ولكن لم يكن في عهده ، بل لم يكن في المسلمين من خمسمئة سنة الى اليوم من هو أعمق منه أثرا في المجتمع الاسلامي ، على رغم أنه نشأ في محيط ضيق وفي بلد بعيد عن مركز حركة الحياة الفكرية الاسلامية . وما اهتز هذا المجتمع هزة كانت أشد من الهزة التي أحدثها هذا الرجل واني لأعجب الآن من عنف الدعاية التي حورب بها ومن قوتها ".

ويقول في الصفحة التاسعة من الجزء الأول :

" ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يأت ببدعة ولا أحدث في الاسلام حدثا ، ولم يدع الا الى التوحيد الصحيح و الى الاسلام الحق ، فالدعوة ذاتها لا غبار عليها وليس فيها ما يعاب ، انما يعاب الأسلوب الذى اتبعه فيها ، ذلك أنه رأى ما يصنع بعض الناس عند القبور من مظاهر الشرك فاعتبرهم مشركين ثم عمم الحكم على كل بلد فيه هذه القباب و هذه القبور ، أى أنه حكم بردة المسلمين جميعا و استحلال دمائهم وأموالهم بل لقد استحل ذلك فعلا . مع أن الشيخ كان يقول دائما أنه حنبلي و الحكم في المذهب

(١) علي الطنطاوى ، محمد بن عبد الوهاب ، جـ١ دمشق ، مطبعة دار الفكر ، ط١ سنة : ١٩٦١ .

الحنبلي أن المسلم اذا ارتد يستتاب و يعرض عليه الرجوع ثلاثا فان لم يعد وكان عاقلا بالغا يقتل وان قال أنا مسلم أو تشهد أخذ بظاهر حاله و ترك .

هذا هو الحكم في المذهب الحنبلي . فهل دعا الشيخ كل واحد من القوم الذين حاربهم و استتابه من عبادة القبور (ان صح أنه كان يعبدها) و أمهله ؟ ولم لم يأخذ بظاهر أحوالهم وكلهم يقول :

" أنا مسلم و يشهد أن لا اله الا الله محمد رسول الله " ؟

وفي الصفحة ٣٦ من الجزء الثاني يتحدث الطنطاوى عن حروب الوهابيين فيقول :

" هل كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب و السعوديين الحق في محاربة الناس واستحلال أموالهم وقتل رجالهم و تخريب بلادهم وهم ينطقون بالشهادتين و يقولون : نحن مسلمون ؟

واذا لم يحاربوهم فهل كان يجوز تركهم على جهلهم و ضلال عامتهم وهم قادرون على ازالة تلك المنكرات التي كانت فيهم ؟

هذا ما ترددت سنين في الجواب عليه ولم أستطع الجواب الى الآن !

فأنا حين أذكر أن أبا بكر و الصحابة حاربوا المرتدين ، مع أن أكثرهم لم يجحدوا الاسلام بل منعوا الزكاة فقط ، أجد للشيخ عذرا في حرب هؤلاء الأعراب الذين فعلوا أضعاف ما فعله أولئك الذين سميناهم أهل الردة .

وحين أذكر أن الشيخ كان يكفر المسلمين جميعا الا جماعته ، مع أن هؤلاء المسلمين لم يعبدوا (جميعا) القبور ولم يأتوا (جميعا) المكفرات ، وانما فعل ذلك عوامهم . وأن فيهم العلماء و المصلحين ، أقول ليس للشيخ عذر .

ثم أنهم لم يتقيدوا في هذه المعارك بالقواعد التي وضعها الاسلام لحرب الكفار في أيام الفتوح الأولى .

فالاسلام يأمر باعلان الحرب، وأن ننبذ اليهم على سواء ، وهذه المعارك كان أكثرها مفاجأة للعدو. أذكر حادثا واحدا من عشرات الحوادث التي ذكرها ابن بشر في كتابه " المجد بتاريخ نجد " وهذه الحادثة هي أن أمير بلدة (حرمة) قدم على الشيخ بعد ما قبلت (حرمة) الدعوة و تبعت الشيخ ، يخبره أن أمارات الردة و نقض العهد قد بدرت منهم ، فبعث اليهم جيشا يقوده عبد الله بن محمد بن سعود فسار من طريق غير مسلوك ليعمي عنهم الأخبار حتى يبغتونهم في بلادهم. فساروا بالليل والنهار حتى وصلوا بلاد (حرمة) ليلا وهم هاجعون ففرق عبد الله رجالا في بروج البلد وفي أطرافها ، فلما انفجر الصبح أمر عبد الله كل صاحب بندقية ان يطلقها. فأطلقوا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها و أسقط بعض الحوامل. و أبو بكر لما وجه القواد لحرب المرتدين أمرهم ألا يعقروا نخلا ولا يقطعوا شجرة. وهذه المعارك لم تخل واحدة منها من قطع الأشجار وحرق المزروعات وافسادها و تجد أمثلة على ذلك في الصفحات ٣٠ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٦ - ٦١ من كتاب تاريخ نجد لابن بشر.

وكانوا يستولون على أموال العدو كلها. وكانت حوادث القتل بدعوى الردة كثيرة. هذا عثمان بن معمر الذى كان أول من نصر الدعوى وأول من قدم عليه مبايعا في الدرعية، كانت نهايته القتل. كما أن ابراهيم بن محمد رئيس بلدة (ضرمى) قتل في مجلسه لأنه كما قالوا نقض عهد محمد بن سعود والشيخ.

بل ربما وصل الأمر الى التدمير العام كما وقع لأهل بلد (حرمة) فان سعود كتب الى أبيه عبد العزيز سنة ١١٩٣هـ أن أهل هذه القرية تكرر منهم نقض العهد وأنهم لا ثقة بهم فكتب اليه أن يدمر البلدة ، فدمرها كلها و ارتحل أهلها فتفرقوا في البلاد.

ثم يقول الشيخ الطنطاوى :

" ولكني أنظر مقابل ذلك فأجد أن هذه المعارك قد نقلت نجدا من حال الى حال من الشرك والجهالة و العصيان الى التوحيد و العلم و العبادة. فهل كانت بذلك جائزة.

" اني لا أزال مترددا في الحكم ولا أدرى بماذا أجيب " ا.هـ

هذه مقدمة أردت أن أضع الطالب أو القارئ أمام اشكالية عليه أن يسبر أغوارها ويفهم حقيقة الأمر فيها فهي تجربة عاشت و ما زالت تعيش عبر أسرة آل سعود في المملكة العربية السعودية و التي نجد من يقول بحق ولاة الأمر فيها " واذا اختلف تفكيرنا عن تفكير الوهابية ، وبعدت الشقة ما بيننا فان هذا لا يمنعني من قول الحق ، وتسجيل ما شاهدت من أن الناس وأرباب الحاجات تراجع الكبار منهم و غير الكبار بل حريتهم ، وأنه لا شيء أهون من الوصول اليهم و الحديث معهم ، ومناقشتهم وهم يصغون للصغير قبل الكبير بصدر رحب ، وخلق عربي ، تماما كعلماء الدين الاول في قرى جبل عامل الذين يحرصون كل الحرص على حياة البساطة و البعد عن الأبهة" (١)

صحيح أن هذه التجربة او الحركة لم تتمخض عن احداث حركة علمية ترفع من مكانة العالم الاسلامي و تحصنه من حالة الذل التي آل اليها عقب الحركة العلمية التكنولوجية في أوروبا من جهة و حالة الجمود الذى يصعب تصوره في حالة المسلمين وتمزقهم وتآكلهم الداخلي وانكبابهم على ذاتيتهم بشكل محورى دائرى ، الا ان قيمة التجربة تكمن في مدى تغييرها للواقع الذى عاشت فيه ، فالمحيط هو مبرر للنتائج او ناف لواقعيتها ومصداقيتها وقدرتها على اصلاح ما قالت أنه فاسد ، لذلك كان لا بد من دراسة البيئة التي عاصرها محمد بن عبد الوهاب .

نجد قبل محمد بن عبد الوهاب :

صحيح أن قبائل الحجاز و اليمن هي التي حملت راية الاسلام الى العالم في أقصى الأرض وأدناها ، لكن حظ نجد كان الاهمال في عهد الخلفاء الأمويين و العباسيين والأتراك ، و يقول الدكتور محمد شندب أن عقرب الزمن قد عاد الى الوراء أجيالا

---

١) محمد جواد مغنية ، رحمه الله ، هذه هي الوهابية ، دار الجواد ، بيروت ، ط٢ سنة ١٩٨٢ ص ٣٤ .

وعادت أحوال الجاهلية قبيل ظهور الدعوة الوهابية الى السيطرة من جديد على كل مرافق الحياة في البلاد النجدية ، وينقل عن كتاب " المجد في تاريخ نجد لابن بشر ما يصدق ويؤكد عودة الجاهلية من جديد الى نجد ، فالغارات القبائلية والعشائرية عادت من جديد وبشكل أشد شراسة عما كانت قبل الاسلام حتى أن المدفعية استعملت فيها ، وكمثال على تلك الغارات يذكر أنه في سنة ١١٣٢هـ ظهر سعدون بن عزيز على نجد وأتى بالمدافع من الاحساء ونزل عقربا . . . فحجرهم فيها حتى هزلت مواشيهم ثم سار الى الدرعية ونهب فيها بيوتا وقتل أهل الدرعية كثيرا من قومه .

وكانت نجد مقسمة الى : امارة آل معمر في العينية وامارة آل سعود في الدرعية وامارة بني بانيس في الرياض ، وآل خالد في الاحساء ، وآل هزال في نجران مع امارة آل علي ، وآل حجيلان في القصيم ، هذا عدا عن المشيخات الكثيرة . . . وأن العلاقة التي كانت تربط هذه الامارات هي علاقة الغزو والنهب .

ويقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في كتابه " محمد بن عبد الوهاب " (١)

" ولم يكن حظ الحياة الدينية أفضل بكثير من الحياة السياسية ، فكنت ترى النجدي يتطير ويتفاءل بالسوانح والبوارح ويستشير الكهان والعرافين حتى كثر خلفاء الأبلق السعدي ، عراف نجد المشهور في الجاهلية .

ويقول : " وقد ترى حلقات كحلقات قريش مبعثرة فوق رمال الصحراء ، يتحدث فيها الناس عن البطولات الجوفاء وعن مغامرات الغزو والقتال " .

ويصف حالهم الارهابية عندما يقول : " يرى سالك الصحراء في وهج الظهيرة أفرادا من البدو يكمنون في المغاور والكهوف يقطعون السبل على المسافرين والقوافل ويقتلون الرجال والنساء ، كما يرى عصابات السفاكين واللصوص يهاجمون القرى والمدن في غسق الليل ووضح النهار ، ولم يكن ثمة حاكم قوي يستطيع فرض الأمن والطمأنينة .

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار ، محمد بن عبد الوهاب ، دار العلم للملايين . بيروت ، ط٣ ، سنة ١٩٦٧ ص ٢٦ وما بعدها . .

والعلماء والمصلحون كانوا يذوقون أنواعا من الأذى والاضطهاد ، لأنهم كانوا يحاولون ان يقفوا في وجه الأشرار المفسدين ». أما عن حالة الدين الاسلامي فقد : " صار مجموعة من الخرافات ترتدى سمات العبادة وأردية القداسة خداعا للبسطاء . فهو عند الغني ما ساعد على نمو المال وهو عند ذوى الجاه والسلطان ما كان عونا على بسط النفوذ والسيطرة . فكل فريق يكفيه حسب أهوائه و مصالحه والسواد الأعظم يتبع كُبراءَهُ ويستظل تحت لوائهم طمعا في الاحسان و نظرات العطف و العون " .

ويقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في صفحة ٣٤ :

" ولذلك قدسوا شجرة الطرفية تقديسا كبيرا . فاذا ولدت المرأة ذكرا علقت عليها حبلا أو قطعة من قماش طلبا من الطرفية أن تطيل عمره . فكان الرّائي اذا أبصرها لا يكاد يبصر الأغصان و الأوراق و الساق لكثرة الحبال و قطع الأقمشة ، هذا عدا عن قبر رجل كان أعمى يحكون عنه الروايات و الأساطير حتى أنهم عكفوا على قبره وقدسوه .

ويقول الشيخ الطنطاوى " واعتقد الناس النفع و الضر بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والصالحين و بالقبور و الأشجار و القباب و المزارات و صاروا يدعون هؤلاء جميعا ويطلبون الحاجات منهم و يرجعون في الشدائد اليهم و ينذرون لهم و يذبحون .

تلك هي بعض سمات الحياة في نجد ، واذا عرفنا هذا الواقع يمكن بعده أن نفهم الحاجة الملحة لرجل كالشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولكن هل معنى ذلك أن يحتم العلاج على كل البلاد الاسلامية في كل زمان و مكان دون الأخذ بعين الاعتبار الحاجة التي تلزمهم ؟ وهل يعني أن حلا لمشكلة في زمن ما ولأسباب معروفة يجب أن يخلد فاعله ولا يحمد على فعله ذلك فحسب بل يعتبر قائدا واماما خالدا أبد الدهر وأفعاله باتت الترياق لكل مشكلات المجتمع الاسلامي ؟

الحقيقة لا . فلكل زمان مشاكله ولكل بيئة مشاكلها ، والحلول تكون متناسبة مع طبيعة المشكل ، وتكون قد وقعنا في نفس الخطأ الذى وقع فيه من قدسوا الحجر و الشجر اذا نحن فعلنا ذلك مع أى مصلح وفي أى زمان .

من هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؟

نشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب نشأة تدين و تقوى و رأى النور في بيت عماده العلم والتقوى ، ولد سنة ١١١٥هـ - ١٧٠٣م في بلدة العينية من اقليم عارض ، وكان والده يتولى قضاءها ، وهي قرية معروفة في اليمامة غربي الرياض. و يعود نسبه الى تميم احدى قبائل نجد الكبرى .

تعلم القراءة و الكتابة على يد رجال الدين الحنابلة . . وكان مقبلا على طلب العلم بنهم سريع الحفظ وقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره . أجازه والده لصلاة الجماعة ثم علمه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل .

المصادر التي استقى منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

١ - القرآن الكريم .
٢ - السنة النبوية الشريفة .
٣ - المذهب الحنبلي .
٤ - مؤلفات الشيخ أحمد بن تيمية و تلميذه ابن القيم .

وأما عن رحلاته فان أحمد أمين في كتابه زعماء الاصلاح يقول أن الشيخ ابن عبد الوهاب طوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة و خمس سنين في بغداد و سنة في كردستان و سنتين في همذان ثم رحل الى أصفهان ودرس هناك فلسفة الاشراق و التصوف ثم رحل الى " قم " . و يقول الدكتور محمد شندب أن عبد المتعال الصعيدي في كتابه المجددون في الاسلام يوافق أحمد أمين غير أن ابن بشر لم يذكر هذه الرحلات بل اكتفى بذكر رحلة الشيخ الى البصرة فقط .

مؤلفاته : عديدة أهمها :

١ - كتاب التوحيد ، الذي هو حق الله على العبيد .
٢ - كشف الشبهات .
٣ - رسالة تفسير الفاتحة .
٤ - الأصول الثلاثة و القواعد الأربعة .
٥ - شروط الصلاة وأركانها .
٦ - آداب المشي الى الصلاة .

٧ ـ أصول الايمان .

٨ ـ فضل الاسلام .

٩ ـ كتاب الكبائر .

١٠ ـ نصيحة المسلمين .

١١ ـ ستة مواضيع من السيرة .

١٢ ـ مسائل الجاهلية .

١٣ ـ تفسير كلمة التوحيد .

١٤ ـ تفسير بعض سور القرآن الكريم .

١٥ ـ خلاصة السيرة لسيرة ابن هشام .

١٦ ـ مختصر زاد المعاد .

١٧ ـ كتاب مجموع الحديث على أبواب الفقه .

١٨ ـ مختصر الشرح الكبير و مختصر الانصاف. هذا عدا عن رسائل كتبها للبسطاء كي يسهل فهمها .

انتشار الدعوة الوهابيـــة :

بدأت دعوته بالفعل حينما تزوج ابنته أمير العينية عثمان الذى وقف الى جانبـه وآزره ، و بعد مدة قصيرة كثر أتباع الشيخ و طفق يحطم هياكل البدع و تماثيل الخرافات وأغلال العقائد الباطلة و يمحو من أذهانهم ألوان الاشراك ، وبعث رجاله لقطع الأشجار المقدسة علنا ، فقطع وأحرق منها ما كان بأطراف البلدة ، مما كان الناس يعتقدون فيها القدرة و التأثير في حياتهم .

وينقل الدكتور محمد شندب عن محمد حامد الفقي في كتابه : أثر الدعوة الوهابيـــة أنه كان في بلدة العينية دوحة يعظمها كل أهلها الى حد بعيد و يعلقون عليها و يأخذون من أوراقها وأغصانها تبركا وانتفاعا . فذهب اليها الشيخ مع تسعين من أتباعه واجتثهـا من أصلها ، وهو يقول : " وقل جاء الحق و زهق الباطل ان الباطل كان زهوقا "(١) تأسيا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ما تلا هذه الآية الكريمة وهو يحطم أصنام الجاهلية المنصوبة حول الكعبة عند ما فتح مكـة المكرمة .

---

١) سورة الأسراء الآية : ٨١

ويذكر محمد حامد الفقي أنه بينما كان الشيخ و رجاله يحطمون الدوحة وقف الناس ينتظرون الهلاك الذى سيحل بهم ، وهوت الدوحة الى الأرض و خرج منها صوت كريه . ولم يصب أحد من الموحدين بمكروه فأخذهم الذهول و قال بعضهم " سحر غلب سحرا " .

وفي مدينة " الجبيلة "(١) قبة على القبر المنسوب الى زيد بن الخطاب رضى الله عنه يحج اليها الناس و يعكفون على قبره و يتمسحون به و يتمرغون في ثراه " ، فطلب الشيخ من الأمير عثمان أن يهدم القبة فوافقه . ورجاه أن يكون معه ساعة الهدم حتى لا يتصدى له أهل الجبيلة لأنهم يعتقدون فيها الخير و البركة . فسار عثمان و معه ستمئة فارس وجمع أهل الجبيلة جموعهم استعدادا للمقاومة و توزعوا في المراكز الحساسة و رابطوا فيها بيد أنهم تراجعوا حينما شاهدوا قوة ابن معمر ، معتقدين ان القبة ستحمي نفسها .

فتقدم الشيخ و هدم القبة فتكاثر رجاله عليها و سووا القبر بالأرض واشترك في هذه الحملة مشارى و ثنيان " شقيقا محمد بن سعود صاحب الدرعية وكانا من الذين آمنوا بالدعوة ودخلا فيها . فقطع الأول شجرة (دبوة) وقطع الشيخ بنفسه شجرة (الذيب) مع بعض أصحابه وكان العامة يعظمون الشجرتين .

وضجت نجد لهذا الحادث وكان له صداه الكبير و دويه العظيم وتناقل الناس أخباره وكثر الحديث عنه لأن بعض جهلة العامة كانوا يعتقدون بأن من يقوم بهدم القبة لا بد أن يصاب بمكروه و كانوا يتوقعون أن يصاب الشيخ . فلما انقضت مدة وهو يتمتع بأكمل صحة أقبلوا عليه و عظموا شأنه و صدقوا أنه على حق و آمنوا بدعوته وكلهم يراه أبا رحيما أو صديقا كريما .

ومضى الشيخ في تنفيذ خطته فدمر ما كان في البلاد الخاضعة لابن معمر من مشاهد وأوثان و قباب و قطع كل الأشجار المقدسة . فكانت أولَ بلادٍ نجدٌ تطبق مبادئ الدعوة وأولَ من يؤمن بها و يدافع عنها .

هذه هي المرحلة الأولى من أعمال الشيخ محمد بن عبد الوهاب . اما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة بداية بناء الدولة أو بمعنى أدق كما يقول الدكتور محمد شنديب : " لقاء العقيدة والقوة " حصل ذلك على أثر اتفاق الدرعية سنة ١١٥٨هـ - ١٧٤٠م ، حصل ذلك

---

١) الجبيلة : مدينة صغيرة في وادى حنيفة ، تقع في منتصف الطريق بين الدرعية و العيينية .